الصورة عند شعراء السجون في العصر الأموي"الصعاليك أنموذجاً"

ميادة عبد القادر عمران خطاب
مدرس مساعد في كلية الآداب
جامعة بغداد

توطئة

يبحث الإنسان عن الأماكن التي تحتضنهُ أو تحتويه طبقاً لحاجته النفسية، والسجن ليس منها، فهو من الأماكن التي تهدد أمنه وتجعلهُ يشعر بالنفور وعدم الانسجام معها، ووجوده في السجن يكون قسرياً مجبراً عليه، لذلك نجدهُ يفرض عليه سلوكًا معينًا ونمطًا من التفكير يرتبط بمفهوم القيود و الأغلال وما يتبعها من ألوان التعذيب النفسي، وقد شَهِد العصر الأموي مستجدات و تغيرات في مجالات الحياة، فضلاً عن الاتساع في الدولة الأموية، تبع ذلك قوانين وقواعد تفرضها على أبنائها لكي ترعى قضاياهم، وتسعى بكل سبلها وإمكاناتها إلى تحقيق الأمن والطمأنينة، ومن الطبيعي أن لا يخلو مجتمع من وجود خارجين عن نظامه السائد وتقاليده، منطلقين في خروجهم هذا بحسب ظروفهم ومواقفهم المختلفة، مما أدى إلى ظهور طائفة من الصعاليك (الفتّاك) الذين عُرِفوا بتمردهم وخروجهم على القانون، متخذين الإغارة والغزو وسيلة للسلب والنهب وغير ذلك، فأخذت الدولة تطاردهم وتسعى إلى الإمساك بهم ومعاقبتهم بالسجن، فأصبح السجن سبباً في انطلاق قريحتهم الشعرية، لما عانوه نفسياً وجسدياً بسبب هذه التجربة الجديدة في حياتهم وهي قاسية عليهم، لذا آثرتُ دراسة الصورة عندهم. لتجسيد معاناتهم وهمومهم وأحزانهم، فالصورة هي الطاقة "الفائضة عن التعبير اللفظي المجرد"[1]، أوهي"الوسيلة الفنية الجوهرية لنقل التجربة" [2].

فالصورة "إذاً تنبعُ من أرقى ملكات النفس الإنسانية ويرتبط جمالها بما توحيه من معانٍ وصور داخلية، لأنَّ الشاعر لا ينقل إلينا العالم الخارجي، وإنما يعيد صياغته على وفق تجربته وما يضفي عليها من حياته وإحساسه وأفكاره، وتصبح

الصورة معياراً لعبقرية الشاعر عندما تشكلها عاطفة سائدة أو مجموعة من الأفكار والصور المترابطة أثارتها عاطفة سائدة" [3]، فنمت هذه الصورة وتنوعت عند شعراء الصعاليك (الفتّاك) ومن هذه الصور صور الحنين إلى الأهل والأحباب:

بالرغم من القيود والأغلال التي تقيد أرجل الشعراء الصعاليك في السجن، فإنهم ظلوا ينزعون إلى أهلهم و أحبابهم ، مدفوعين بالحنين الجارف إلى حياتهم التي عاشوها قبل دخولهم السجن، و إلى تذكر ما كانت عليها شيمهم من الكرم، وإقراء الضيف، ومن مواقف شجاعة في مواجهات و نزاعات مختلفة، فتنوعت صور الحنين إلى الأهل والأحباب التي تشدها عاطفة مشحونة بالأحاسيس والعواطف الجياشة، ومن هنا فإن أهمية الشاعر ليست أن يقول لك إنه حزين، أو إنه فرح، ولكن مهمته تتمثل إيجاد الموضوع المناسب لتمرير هذه العاطفة عبره[4].

فالعاطفة هي إحساس من نوع خاص عبّر عنه الشاعر بصياغة جمالية ذات مضمون رمزي [5]. وقد اختلف شعراء الصعاليك بالعصر الأموي في أحاسيسهم ومشاعرهم، كل واحد منهم أراد التعبير عن حنينه المتفجر وعن عاطفته بطريقته الخاصة، فكَثُر التعبير عن ذلك في شعرهم ولاسيما السجناء منهم الخطيم المحرزي الذي يستعطف قومه فيقول [6]:

بني محرزٍ هل فيكم ابن حمية
يقوم ولو كان القيام علي جمرِ
بما يؤمن المولى وما يرأب الثأى
وخير الموالي من يريش ولا يبري
كما إنا لو كان المشرد منكم
لأبليتُ نُجحاً أو لقيت على غدرِ
بني محرز أن تكنس الوحش بينكم
وبيني وتبعد من قبوركم قبري
فَقَدْ كنتُ أنهي عنكم كلَّ ظالمٍ
وأدفع عنكم باليدين و بالنحرِ
معنّى خصمُ أدلّ عليكمُ
بني محرز يوماً شددت له أزري

بحد سنان يستعدُّ لمثلهِ
ورقمِ لسانٍ لا عيّي ولا هَذْرِ

تجسد هذه الأبيات عفوية المشاعر والأحاسيس والعواطف الإنسانية الصادقة التي يمتلكها الشاعر، وأراد التعبير عنها داخل سجنه، فعكست صورة صادقة لنفس عربية التصقت بأرضها و تمسكت بقومها، فعبّرت هذه الروح عن قيم فكرية قبل أن تكون عاطفية، إذ مزج الشاعر بين قيم فكرية وعاطفية، بالرغم مما ينتابه من الحزن واليأس خلف جدران السجن، فنجد الشاعر يوجه نداءاته وصرخاته الشعرية، لا لتخليصه وإنقاذه من محنته الشخصية، إنما من أجل الجماعة بني محرز- قومه، و العمل على إصلاحها و ازدهار مستقبلها فدفاع الشاعر ما هو إلاّ تعبير عن حاجته الفطرية بالانتماء إليها، وهو انتماء يتحدد بـ "اللاوعي وبشكل خارج عن إرادته الواعية" [7]، فإن الحاجة الشديدة التي تبرز عند الشاعر في محنته هو الشعور بالأمن والطمأنينة والتقدير والثقافة بوصفها عناصر تعزيز لإنشداده نحو قبيلته تزيده شدة وتماسكاً وتديمه تواصلاً و انسجاماً[8]، فعبّر الشاعر عن حنينه وأشواقه إلى أهله وأحبابه، إلى جانب ولائه المطلق لقومه، ومن صور الحنين نجدها في قول طهمان الكلابي وهو في السجن[9]:

ولو أن ابلي الحارثيةَ سلّمتْ
عليَّ مُسجًى في الثياب أسوقُ
حَنوطي وأكفاني لديَّ معدةُ
وللنفسِ مِنْ قربِ الوفاةِ شهيقُ
إذاً لحسبتُ الموت يتركني لها
ويُفرّجُ عني غَمَّهُ فأفيقُ
ونبئتُ ليلى بالعراق مريضةً
فماذا الذي تُغني وأنت صديقُ
سقى الله مرضى بالعراق فإنني
على كلّ شاكٍ بالعراق شفيقُ
وإني لليلى بعد شيب مفارقي
وبعدَ تحني أعظمي لصديقُ
لعلك بعد القيد و السجن أن ترى

تمرّ على ليلى وأنت طليقُ
طليقُ الذي نجا من الكرب بعدما
تلاحم من دربٍ عليك مضيقُ

يخفف الشاعر من حدة ألمه وشكواه في السجن، فتشدهُ العاطفة النبيلة إلى ذكريات وأمنيات بلقاء الحبيبة، لعلها تهوّن عليه شعوره بالألم، ثم ينبأ بمرض (ليلاه)، في العراق وهو عاجز عن فعل شيء لها، سوى الدعاء لها، لكي ينشغل عن همومه وأحزانه، ويخفف من معاناته النفسية، فصوّر لنا الشاعر حنينه عن طريق خروجه من عالم المعاناة إلى عالم الخيال والذكريات والآمال والعواطف الصادقة، لعله ينسى أحزانه بعض الوقت.

ولا يختلف حنين السمهري العكلي عمن سبقه إذ نجدهُ يناجي خيال الحبيبة في سجنه ويقول [10]:

لقد طرقتْ ليلى ، ورجلي رهينة
فما راعني ، في السجن إلا سلامُها
فلما ارتفقتُ للخيال الذي سرى
إذ الأرض قفرُ ، قَدْ علاها قتامُها
فإلا تكنْ ليلى طوتك فإنّهُ
شبيه بليلى حُسْنُها وقوامُها
ألا ليتنا نحيا جميعاً بغبطة
وتُبلى عظامي، حين تبلى عظامُها
لذلك ما كان المحبُّون قبلنا
إذ مات موتاها تزاورُ هامُها

لجأ الشاعر إلى الخيال في أجمل صوره، فبدأ يبكي ويستبكي حاله وهو رهين القيود في داخل سجنه، فأخذ يجول ويطوف في أرض الخيال، ملتقياً حبيبته التي زارته في السجن، شاكياً همهُ، متحسراً على رؤيتها، ولكنهُ سرعان ما أفاق، فإذا هو حلم، و السجن مظلم، و الأرض يغطيها الليل، مكوناً لحظة الانفعال الواقعي الذي يحس به، وهي لحظة إطلاق مشاعره وأحاسيسه، التي تتدفق عبر أشعاره، فهو غالباً ما يكثر من التمني، و التمني رغبة خيالية، لا تتجسد إلاّ عبر الصور الخيالية، فنفسه تتحسر شوقاً وحنيناً إلى تحقيق هذه الأمنيات التي تراوده، ولكن اليأس غلب عليه وتمكن منهُ، فأخذ ينظر إلى داخل السجن و خارجه بنظرة

واحدة هي تصوّر إمكانية العيش ، فالتمني أصبح صفة تلازم شعراء السجون كما في قول عبيد بن أيوب العنبري[11]:

أيا جَمَلي إن أنت زرتُ بلادها
برحلي واجلادي فأنت مُحرَّزُ
وهل جَمَلُ مجتاب ما حالَ دونها
من الأرضِ أو ريحُ تروح وتبكر
وكيف ترجيها وقد حال دونها
من الأرضِ مخشيُّ النتائفِ مُذعِرُ

عبّر الشاعر عن شدة حنينه المتفجر، وعن خوفه الذي بلغ به مكاناً واسعاً في أعماقه حد اليأس، فراح يخاطب جَمله، إذ أتى الشاعر باستعارة مكنية في قوله (أنت زرت بلادها) ، فحذف المشبه به وهو (الإنسان)، وذكر لازمة من لوازمه، وهو الزيارة، أي أنه أضفى على جملهِ صفة إنسانية، بعد أن وصل الشاعر إلى حد اليأس، أخذ يتمنى أن تذهب الريح إلى الحبيبة لتزورها، ولكن (العنبري) سرعان ما يدرك استحالة تحقق ذلك، لأنَّ البراري الموحشة (النتائف) تحول بينه وبينها، كما تحول جدران السجن بينهما.

فصور التمني نجدها كذلك في قول معاوية بن عادية [12] :

أيا واليي أهل المدينة رفعا
أنا غرفاً فوق البيوت تروقُ
لكيما نرى ناراً يشب وقودها
بحزم الرحا أيد هناك صديقُ
تؤرثها أم البنين لطارق
عشي السُرى ، بعد المنام طروقُ
يقول بري، وهو مبد صبابة
إلا أن إشراق البقاع يشوقُ
عسى من صدور العيس تنفخ في البُرى
طوالع من حبس وأنت طليق

عبّر الشاعر عن شدة حنينه وشوقه في السجن، فهو يحنُّ إلى نار زوجته (أم البنين)، وإلى طعامها وغذائها، ويتمنى أن يخرج من السجن، ويعود على ظهر بعير إلى وطنه.

و تقترن صور الحنين إلى الأهل وتزداد إذ حلَّ الظلام وطَرقَ الليل، الذي شكل عند شعراء السجون عنصراً مهماً، وله النصيب الأوفر في أشعارهم، معبراً عن همومهم وأحزانهم، ولاسيما كون الشاعر بين جدران أربعة، في زنزانة ضيقة، يراوحه الحارس ويغاديه بين حين وآخر بسحنته القاتمة و أوامره القاسية، بعد أن كان حُراً طليقاً في أرض الله الواسعة، وتطوف بالشاعر أحلام اليقظة، فيحملهُ الخيال إلى أرض بعيدة منها، عن أهله وأحبته فيقول عطارد بن قُران[13]:

يطولُ عليَّ الليلُ حتى أملهُ
فأجلس و النهديّ عندي جالسُ
كلانا بهِ كبلان يرسفُ فيهما
ومستحكمُ الأقفالِ أسمرُ يابسُ
إذا ما ابن صباح أرنَّتْ كبوله
تظن على ساقيَّ وهناً وساوسُ

يشكو الشاعر وهو محبوس في سجن نجران مللهِ وطول هذا الليل، فيصف حاله ، كيف أنه بقي جالساً لا يحرك ساكناً، لأنه مكبل بالقيود والسلاسل، وإلى جانبه صديق له مقيد أيضاً، فيتأمل الشاعر قيود صاحبه إذا رنّت، وكأنّها وساوس في ساقيه، وهذا يدل على قدرة الشاعر وطاقاته في تصوير الأشياء ،وبلورتها في صور تعكس حدة المعاناة، مع وضوح دلالتها النفسية المجهدة على الشاعر، والصورة ذاتها نجدها في قول جعدة بن طريف السّعديّ [14]:

يا طول ليلي ما أنامُ كأنَّما
في العين مني عائرُ مسجورُ
أرعى النجوم إذ تغيب كوكبُ
كالأت آخر ما يكادُ يغورُ
إن طالَ ليلي في الاسار لقد أتى
فيما مضى دهرُ عليَّ قصيرُ

يمر الشاعر بحالة نفسية حادة في السجن، فيعبّر عن حزنه ومعاناته من فراق أهله، فيقدم لنا صورة تشبيهية رائعة تجسد من خلالها حالته النفسية المضطربة، إذ يعاني الشاعر من طول هذا الليل، وكأن عينه أصابها سهم، ولا يعرف من رماه، مترقباً النجوم حتى تغيب، ويرعى الكواكب الواحدة تلو الأخرى، فنفس الشاعر

تتحسر وتتقطع ألماً لفراق أهله، ناظراً إلى الليل قائلاً في نفسه، كم طال عليَّ هذا الليل، لحظة الفراق، بعد أن كان قصيراً بين أهله، بينما تتقلب الصورة عند جحدر المحرزي الذي يرى أن الليل قد أحسن إليه[15]:

إنّ الليالي نحت بي فهي محسنةٌ
لا شك فيه من الديماس و الأسدِ
و أطلقتني من الأصفاد مخرجة
من هول سجن شديد البأس ذي رصدِ
كأنَّ ساكنهُ حياً حشاشته
ميتُ تردد منه السّم في الجسدِ

لم يعانِ الشاعر الليل الطويل مثل باقي شعراء السجون، إنّما شكر الليالي التي أحسنت إليه، بإخراجه من السجن بأمر من الحجاج مقابل مقاتلة (الأسد)، ففضل الشاعر منازلة الأسد، على القيود التي تكبله، والضيق والغربة التي يحس بهما، متغلياًعليه بعد خوف شديد، فأراد الشاعر إظهار قدرته وقوته، معبراً عن حال الشاعر السجين، وإن كان حياً داخل السجن، ولكنُّهُ ميت فعلاً يعبث السم في جسده.

تكررت هذه الصور عند شعراء السجون وهذا ما نجده عند غيلان بن الربيع في قوله[16]:

إلى الله أشكو محبسي في مخيس
وقرب سجا يارب حين أقيلُ
و إني إذا ما الليل أرخى سدوله
بمنعرج الخل الخفي دليلُ

رسم الشاعر لنا لوحة فنية، مملوءة بالأحزان والهموم، كأنّهُ ينتظر هذا الليل ليجن عليه، ويزور هذا الماء ويشرب منه ليحسَ أنّهُ قريب من أهله وأحبابه، فأحسن الشاعر تصوير حالته، دالاً على سعة خياله و دقة تصويره الأشياء في الليل.

ومع صور الليل بث الشعراء في مقطوعاتهم وقصائدهم صور السجن وما ينتابهم، فالسجن كما هو معروف من الأماكن المرفوضة وغير المستحبة، إذ إن

الإنسان يشعر بالارتياح والسعادة في الأماكن التي تحتضنه طبقاً لحاجته، ويخمل في أماكن أُخرى[17].

فالسجن من الأماكن التي لا يألفها الإنسان و يكون مجبراً عليها، إذ غالباً ما تهدد أمنه، وتجعله يشعر بالخوف وعدم الانسجام معها. فوجود الصعلوك في السجن يفرض عليه سلوكاً معيناً ونمطاً من التفكير يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع مفهوم القيود و الأغلال و أثرها في نفسه، بعد أن كان الصعلوك حراً طليقاً، يحسُّ بنبض الحرية خارج السجن بينما داخله "يقيد حركته التي كان بها طليقاً كالطير في الهواء"[18]، لهذا لجأ بعض الشعراء الصعاليك للتخلص من هذه القيود ونيل حريتهم عن طريق استعطاف الحاكم أو الولاة لإطلاق سراحهم، أو التفكير بالهرب من السجن، في سبيل التخلص من القيود ، فعبّر بعض شعراء السجون عن معاناتهم واستيائهم من السجن كما في قول ابي النشناش النهشلي [19]:

كأنَّ لَمْ ترَيْ قبلي أسيراً مُكَبَّلاً
ولا رجُلاً يرمى به الرَّجوانِ
كأنَّ جوادُ ضمهَ القيدُ بعدما
جرى سابقاً في حَلْبةٍ ورهانِ

يوجه الشاعر خطابه إلى امرأة تجهل حاله، ولا تدري مدى معاناته في السجن، فإنهُ يعرّض نفسه للتهلكة و المصاعب بأن يرمي به الرّجوان ويطرح في المهالك، ثم يوجه استنكاره ونقده لهذه المرأة، وكأنَّها لم ترَ رجلاً أسيراً مقيداً بالأغلال والسلاسل، ثم يتذكر الشاعر كيف كان حراً طليقاً كالجواد الذي يسبق الخيل في حلبات الرهان، فأصبحت تتقاذفه جدران السجن، ليتحسر الشاعر على هذه الأيام، ولا سيما الحرية وهذا ما نجده في قول جعفر بن علبة[20]:

إذا بابُ دُوران ترنم في الدُّجى
وشدَّ بإغلاقٍ علينا و إقفالِ
وأظلم ليل قامَ علج بجلجلٍ
يدور بهِ حتى الصباح باعمالِ
وحراسُ سوءٍ ما ينامون حوله

فكيفَ لمظلوم بخيله محتالِ
ويصبرُ فيه ذو الشجاعة و الندى
على الذلِ للمأمور والعِلج والوالي

سَخِر الشاعر ممّا يجري حوله من عسف الحراس، وظلمهم و تعسفهم، ومعاملتهم القاسية والغليظة، وتبجحهم أمام المسجونين، لينطلق الشاعر من هذه المعاناة إلى تقديم صورة استعارية، جاعلاً (الترنم) صوتاً للباب، ليخفف من حدة ألمه وحزنه، وهذه من أجمل الصور السمعية التي يصفها لنا الشاعر داخل سجنه، ويصور السمهري العُكلي سجنهُ في المدينة قائلاً [21] :

إذا حرسيٌّ قعقع البابَ أردعتْ
فرائص أقوام ، وطارت قلوبُ
نرى البابَ، لا نستطيع شيئاً وراءهُ
كأنَّا قنيٌّ اسلَمَتها كعوبُ

وهي صورة قريبة مما قال جعفر بن علبة، وفيها جسّد السمهري حالته النفسسية وما انتابه من خوف لدى تحريك باب السجن، مجسداً الحالة النفسية التي انتابها الاضطراب والقلق، فأتى الشاعر بصورة تشبيهية، إذ شبه شدة خوفهم من تحريك باب السجن الذي أحدث رعدة في قلوبهم، وهم عاجزون عن فعل شيء، بقناة قد تكسرت و تهشمت الأنابيب التي بين عقدها، فهي عاجزة جوفاء مثلهم، فأراد الشاعر تشبيه حاله مع رفاقه بتلك القناة المكسرة التي ظلت عاجزة لا تحرك ساكناً، ليظل الشاعر السجين يبحث عن حريته بعيداً عن القيود وهذا ما نجده عند المرار الفقعسي بقوله [22]:

فيا واليي سجنِ اليمامة أطلقا
أسير كما ينظر إلى البرق ما يفري
فإنْ تفعلا أحمدكُما ولقد أرىْ
بأنكما لا ينبغي لكما شُكري
ولو فارقتْ رجلي القيودُ وجدتني
رفيقاً بنصِّ العيس في البلد القفر

أبدع الشاعر في تصوير حالته ووضعه في السجن ومعاناته النفسية، إلى جانب تطلعه إلى آفاق الحرية من خلال انتقائه مفردات ودلالات معينة تعبّر عن كل ما يدور في ذهنه، فإن لفظة (القيود) التي ذكرها الشاعر، تشير بشكل مباشر إلى السجن، وإلى الأزمة النفسية العميقة التي يعانيها السجين، فإن "القيود الحديدية التي تحيط به وتثقل على جسده، لا تثقل بثقلها المعدني فقط، بل تثقل على نفسه

وروحه بالذل الذي غمسته فيه" [23] ، فيجسد الشاعر لنا الصراع الذي يعتمل في داخله وخارجه إذ يمثل "الداخل من ضيق المكان وسلب الحرية، وما يمثله الخارج من اتساع لا حدود له وحرية لا ينالها قيد" [24]، أما طهمان ألكلابي فتراوده أحلام الحبيبة ويطرق خيالها فكره، ويخترق أسوار السجن ويناجيه فيقول[25]:

لعلّكَ بعد القيدِ و السجن أنْ ترى
تمرُّ على ليلى وأنت طليقُ
طليقُ الذي نَجَّا من الكَرْبِ بَعْدَما
تلاحمَ مِن دَرْبِ عليكَ مَضيقُ
وَقَدْ جَعَلَتْ أخلاقُ قومِكَ أنَّها
مِنْ الزَّهْدِ أحياناً عَلَيْكَ تضيقِ
أسيراً يَعَضُّ القَيْد ساقيه فيهما
من الحلقِ السُّمر اللّطافِ وثيقُ

فالحبيبة بمثابة تعويض نفسي يحتاج إليه الشاعر السجين للتعويض عن حالة الحرمان التي يعيشها داخل السجن، ويتمنى الشاعر زيارة حبيبته ، ليعبّر عن أشواقه ويحسُ بأنّهُ حر طليق يمارس حياته بشكل طبيعي، لأن الحرية "هي الوجود الإنساني ذاته، أي انّهُ لا إنسانية من دون حرية"[26] .

فالشاعر لا يستطيع فعل شيء سوى أن يحلم و يتمنى ويتأمل و يتحسر على أيامه، فكثرت هذه الصور عند شعراء السجون ولاسيما في قول الخطيم المحرزي[27]:

بنجران يقري الهمَّ كلَّ غريبة
بعيد شأو الكلم باقية الأثر

يعاني الشاعر من الضيق و الحرمان في السجن، مجسداً حالة الفزع التي تنتابه هو وأصحابه ، محاولة منهُ للخروج من هذا المأزق، و التخلص من هذه الورطة، فجال خياله وطاف عبر ذكريات مخيلته، ليخفف من حدة معاناته النفسية التي يعيشها الشاعر داخل سجنه ، فقدم لنا صورة استعارية، إذ جعل للهموم طعاماً بدل الطعام الذي يُقري به ضيوفه عندما كان طليقاً، فحذف المشبه به وهو (الطعام) وذكر لازمة من لوازمه في لفظة (يُقري)، بهذا يصف الشاعر كرمه وحسن ضيافته، وحنينه إلى هذه الأيام ، وهذا حال شعراء السجون فخيالهم يجول ويطوف في سماء فكرهم وهذا ما نجده في قول جعفر بن علبة[28]:

هوايَ مع الركب اليمانين مُصْعِدُ
جُنيت و جثماني بمكة موثقُ
عجبتُ لمسرها و أني تخلصتُ
التي وباب السجن دوني مغلقُ
ألمت فَحيّت ثمَّ قامتْ فوّدعتْ
فلما تولت كادت النفس تزهق

يعقدُ الشاعر محاورة ظريفة مع حبيبته عبر خياله المتوقد، إذ يرى هواه (مع الركب اليماني مصعد) بينما جسمه في سجن مكة الذي حُبس فيه، فأخذ يجول في خياله الواسع، حتى كادت نفسه تزهق و تذهب مع الحبيبة ، لأنَّ نفسه قد أصابها الهوى و الحنين إليها، مؤكداً ما زال إليه من الأمر لا يخفيه ، وهذا دليل على سعة خيال الشاعر وقدرته وبراعته الفنية في توظيف خياله .

فأتسع خيال شعراء السجون، و اتخذوا صوراً متنوعة ، كما في قول عطارد بن قُران [29]:

نجوتُ، ونفسي عند ليلى رهينةُ
وَقَدْ عَمّني داج ، من الليل دامسُ
و غامَسْتُ عن نفسي بأخلقَ مقصلٍ
ولا خيرَ في نفسٍ أمرىءٍ لا تغامسُ
ولو أن ليلى أبصرتني غُدْوةَ
وصَحبْيَ، و الصَّفَ الذينَ أمارِسُ
إذنْ لبكتْ لَيلى عليَّ، واعوَلَتْ
وما نالت الثَّوب الذي أنا لابسُ

يعقد الشاعر مقارنة استحضار طيفها وزيارة (ليلى) بصورة القيود و الأغلال، لبيان حالته المؤلمة، ومدى تفاقم حالته النفسية السيئة، وتنامي حالة الحزن و الأسى التي يعيشها في ظل واقعه المرير المتمثل بالسجن وفقدان الحرية، فكان توظيف هذا الطيف يخضع لحالة الشاعر الذهنية وموقفه، و للانفعالات النفسية التي يعبر عنها .

أما صورة الخوف من الموت فقد برزت في شعر الصعاليك بشكل واضح، وهذا نابع من طبيعة حياتهم القلقة، و المتحولة باستمرار و سلوكهم ونمط تفكيرهم المتميز، بدأ كل واحد منهم يبحث عن الأمن لكي يحقق توازنه الداخلي، ويتجاوز

معاناته النفسية التي حدثت له لأسباب عدة، منها أسباب تتعلق بطبيعة حياته الاجتماعية والأخرى قبلية و غيرها.

ومن هنا فإن الحاجة إلى الأمن "حاجة سيكولوجية جوهرها السعي المستمر للمحافظة على الظروف التي تضمن إشباع الحاجات البيولوجية و السيكولوجية " [30]، فالخوف إذاً "انفعال أولي يثيره الخطر المتوقع، وتميزه تعبيرات بدنية واسعة و تصحبه رغبة في الهرب أو الاختفاء" [31] ، لهذا وظف الشعراء الصعاليك (الفتّاك) الخوف بشكل واسع و بأساليب فنية متعددة [32] ، لتجسيد حجم معاناتهم و أحزانهم و اضطراباتهم النفسية ، كما في قول جحدر المحرزي[33] :

إنَّ الـهمومَ إذا عـادتك واردة
إنْ لم تفرج لها وردُ باصدارِ
كـانتْ عليكَ سقامًا تستكينُ لـهُ
و أنصبتْكَ لحاجاتٍ و إذكارِ
فصرتُ في السجن والحراس تحرسُني
بعد التلصص في بّر و أمصار

عبّر الشاعر عن شدة خوفه وقلقه في السجن، مصوراً الحالة النفسية اليائسة، المليئة بالألم و الحزن، والتي تصاحبها مشاعر الضيق وحالة الفزع والخوف من الموت، فحوّل الشاعر الهموم التي تلازمه إلى معادل الزّوار والمحبين الذين يعودون الشاعر، والتعلل بالأطياف التي تطرق أبواب السجن، التي تقتحم على الشاعر السجين نفسه المغلقة على اليأس والخوف، وتخرجه إلى الحياة والأمل ويمارس حياة التلصصُ والتنقل بين الأمصار، فقدم لنا الشاعر صورة تحمل في طياتها الجدة والابتكار، وهذا ما نجده في قول السمهريّ العُكلي [34] :

فإن أنجُ منها أنْجُ من ذي عظيمة
و إن تكن في الأخرى فتلك سبيلِ

اشتد الخوف عند الشاعر في سجنه، حتى وصل إلى حالة اليأس و الاستسلام للقدر، من شدة خوفه و إبعاده عن أهله و أحبابه، وهو بُعد لا لقاء بعده، وهذا أشدّ ما يخشاه، وهذا ما جعلهُ يخشى ذكر الموت (النهاية)، فأراد التعبير عنه بلفظة (أنجُ)، للتخفيف من شدة خوفه وهلعه، ومن حدة معاناته النفسية.

أما جحدر العُكلي فيصف حاله وحال أصحابه في السجن بقوله [35] :

إذا تحرك باب السجن قام لهُ
قومُ يمدُّونَّ أعناقاً و أبصارا

صوّر الشاعر حاله وحال رفاقه في السجن، عندما يُحرَّك باب السجن، ينتابهم الخوف والقلق، ويمدون أعناقهم و أبصارهم، ولا يعرفون ماذا ينتظرهم الموت أم النجاة، فجسّد لنا الشاعر اضطراب مشاعره وأحاسيسه، وقلقه عن حالة الخوف التي ينوء تحت وطأة تحريك الباب.

قال السمهري [36]:

ألا أيُّها البيت الذي أنا هاجرهُ
فلا البيتُ منسيٌّ ولا أنا زائرهُ
فإن انج يا ليلى فرُبَّ فتى نجا
وإن تكون الأخرى فشيءٍ أحاذرهُ

تتصاعد زفرات الخوف المفزعة من الموت في أبيات الشاعر، وكأنّه يريد الهروب من الموت، وإن وصل إلى حد اليأس و الاستسلام الذي يشعرهُ من خلالها أنه أمام موقف صعب ومعقد لا قدرة له على تجاوزه أو التخلص منهُ [37]، إلا من خلال عنصر الأمل لأنه "الجو الروحي الوحيد الذي يمكن أن تتنفس فيه الروح "[38] ، لذلك لجأ الشاعر إلى لفظة (أنج) هرباً من الموت، فقدم لنا صورة سمعية حسية تُجسد حال الشاعر ورفاقه المسجونين خلف جدران السجن.

أما صور التوبة و الاستغفار فنجدها في شعر الصعاليك، وذلك لشدة وطأة السجن عليه، وضيق المكان، فيبدي الشاعر في مناجاته لله عز وجل طالباً منه التوبة و المغفرة و الإجارة من القدر الذي كان عليه أن يؤمن إيماناً مطلقاً و أن يستسلم لهُ و أن يخاف منهُ بقوة [39] كما في قول جحدر المحرزي [40]:

إني دعوتك يا إلـهَ محمد
دعوى فأولها لي استِغْفارُ
لِتُجيرَني من شَرّ ما أنا خائفُ
رب البرية ليسَ مثلكَ جارُ
تقضي ولا يُقضى عليك وإنّما
ربي بعلمك تنزلُ الأقدارُ

يدعو الشاعر ربه ويستغفرهُ ، بعد أن وصل إلى النهاية الموشكة ، و الموت الذي لا مفر منهُ ، مما جعله يستسلم للقدر ، ويجسد صراعاته ومعاناته النفسية التي تتصاعد عبر نفثاته اليائسة .

و الصورة نفسها نجدها في قول جحدر المحرزي [41] :

إني إلى أجل إن كنتِ عالمةً
إليه ما منتهى علمي و آثاري
لله أنت فإن يَعْصِمك فّاعتصمي
وإن كَذبت فحسبي الله من جارِ

يستغفر الشاعر ربه ، طالبًا منه أن يرحمه ويتوب عليه ، ويخفف عليه وطأة السجن وشدته ، وأن يتحمل بؤس واقعه .

ويكرر الشاعر هذا الاستغفار في موضع آخر فيقول [42]:

يارَبّ أبغضُ بيتٍ عند خالقه
بيتُ يكُو فانَ منه أُشعِلت سقرُ
مثوى تجمع فيه الناس كلهم
شتى الأمور فلا ورد ولا صدر
دار عليها عفاءُ الدهر موحشةُ
من كُلِّ انس وفيها البدو و الحضر

يتقرب الشاعر إلى خالقه، ويطلب توبته واستغفاره، ويرحمه داخل السجن، ليشعر بالطمأنينة و الأمن داخل هذا المكان الموحش الذي يخلو من الأنس، ويحاول الشاعر الخروج من واقعه المؤلم، فيجول خياله، راسماً لنا صورة تناقض المكان الموجود فيه، فهو يتخيل نفسه بأنه في بيت الله الحرام ليحس بالأمان، ويبتعد عن الخوف والقلق. مدركاً تماماً بُعده عن خالقه، مريداً التقرب منهُ.

وبعد فقد توصل البحث إلى:

- اتسم شعرهم بالجدة والإبداع، من خلال تصويرهم معاناتهم و أحزانهم، وبلورتها في صور ومعان ذات مضامين فكرية ونفسية.
- تنوعت صور الحنين إلى الأهل و الأحباب، معبرة عن شدة وجدهم و أشواقهم و حنينهم المتفجر نحو الأهل و الديار.

- برزت صورة السجن بروزاً واضحاً وكبيراً في شعرهم، لاشتداد معاناتهم النفسية و الجسدية، معبرين بدقة إحساسهم عن معاناتهم وعن أدق خلجاتهم النفسية لكونهم رفضوا مكان السجن الذي يشعرهم بالقيد و الضيق الشديد، متطلعين بآمالهم إلى الحرية وحب الانطلاق وعدم التقيد في حياتهم.
- أحتل الليل مكاناً واسعاً في شعرهم، ناقلاً همومهم ومعاناتهم النفسية في صورة تعكس ما يعانيه الشاعر من قيود وهموم خلف قضبان السجن، فأبدع الشاعر في تصوير الليل الذي جسد أحزان شعراء الصعاليك وغربتهم ووحدتهم.
- أبدع الشاعر في تصوير صور الخوف من الموت، وهذا نابع من طبيعة حياتهم التي اتسمت بالقلق وعدم الاستقرار والبحث عن المكان الآمن الذي يجد فيه الصعلوك وجوده المستقر والمتوازن وهذا يرجع إلى ظروفهم ومواقفهم المختلفة التي تؤدي إلى السجن أو الفرار من السلطة الأموية التي تحاول الإمساك بهم.
- يمثل شعرهم شعر التمرد على الواقع، لأن لهم فلسفتهم في الحياة، المجسدة معاناتهم أصدق تجسيد عن طريق الصراع الذي يعتمل في أنفسهم وطموحاتهم نحو الأمل و الحرية و الخروج من الواقع المؤلم.

الهوامش و المصادر

1- النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيّد قطب ، دار الكتب العربية ، بيروت ، (د.ت):.46
2- النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، مطبعة نهضة مصر – القاهرة، (د.ت): 417 .
3- كولدرج ، د . محمد مصطفى بدوي ، دار المعارف ، مصر القاهرة ، (د.ت):.80
4- ينظر : النص الأدبي تحليله وبناؤه مدخل إجرائي ، د. إبراهيم .....، الجامعة الأردنية_ كلية الآداب ، ط 1 ، 1995م : 51 .
5- ينظر : المصدر نفسه :55 .
6- شعراء أمويون ، دراسة وتحقيق : د. نوري حمودي القيسي ، طبع بمطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل ، 1979م :160/1، 261 ، الثاي و الثأي : الحزم و الضعف، و ثأى : أنفتق ما بينه و اتسع، المعجم الوسيط، قام بإخراجه : إبراهيم مصطفى ، أحمد حسن الزيات ، حامد عبد القادر ، محمد علي النجار ، المكتبة الإسلامية للطباعة و النشر ، استانبول_ تركيا ، (د.ت) : مادة /(ثأى) : 93/1 ، يريش و لا يُبري : لا يضر ولا ينفع ، المصدر نفسه ، مادة /(رَاشَ) : 385/1، نُجحاً: فاز وظفر بما يطلب ، المصدر نفسه : مادة (نجح) : 901/2 ، لا عيي ولا هذر : لا نزرُ ولا هذرُ : لا قليل ولا كثير ، المصدر نفسه : مادة (هذر) : 979/2، تكنس الوحش : كناية عن فرقة .
7- نقد الشعر في المنظور النفسي ، د.ريكان إبراهيم ، وزارة الثقافة و الإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة للطباعة و النشر – بغداد ،1989م : 174 .
8- ينظر: المصدر نفسه : 174 .
9- أشعار اللصوص و أخبارهم ، جمع وتحقيق: عبد المعين الملوحي ، دار الحضارة الجديدة ، بيروت، (د. ت) : 461/3 -462،البيت الرابع في منتهى الطلب (بعد السجن) .
10- المصدر نفسه : 44/1 ، ارتفق : اتكأ على مرفقه أو على وسادة .
11- المصدر نفسه : 219/2 -220 .
12- المصدر نفسه : 30/1، الرحا : جبل بين كاظمة و السيدان عن يمين الطريق من اليمامة إلى البصرة .
13- المصدر نفسه: 105/1 ، الكبل : القيد ، ابن صباح : صديقه في السجن ، يرسف : رسف في القيد رسفاً: مشى فيه رويداً ، المعجم الوسيط : مادة (رسف) :344/1 .

14- المصدر نفسه : 13/1 ، العائر من السهام والحجارة : الذي لا يُدري من رماه، كالأ النجم : راعاه ، كالأت : كلأتُ في فلان : نظرتُ إليه متأملاً فأعجبني ، ويُقال : كلأت في أمرك تكليئاً أي تأملت و نظرت فيه ، لسان العرب ، الإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور الأفريقي ، دار صادر للطباعة و النشر ، مج1 ، دار بيروت ، 1963م : مادة / (كالأت) : 95/1، مسجور بالنار : أي مملوء ، و السجر : إيقادك في التنور ، وسجر التنور يسجرهُ سجراً : أوقده و أحماه ، و السجور : ما أوقد به ، المصدر نفسه : مادة (سجر) : 332/1 .

15- المصدر نفسه : 172/1، الديماس : مكان السجن .

16- المصدر نفسه : 135/2 ، سجا : ماء اختلفوا في موضعهِ ، المخيس : كمعظم ومحدث السجن ، أقيل : أنام في الظهيرة .

17- ينظر : جماليات المكان _ مجموعة من الباحثين ، عيون المقالات _ الدار البيضاء ، الطبعة الثانية ، 1988م :.63

18 – المكان في شعر الصعاليك و الفتّاك إلى نهاية العصر الأموي ، خالد جعفر مبارك ، رسالة ماجستير ، كلية التربية _ جامعة ديالى ،2006م : .48

19- أشعار اللصوص و أخبارهم : 51/1 ، يرمى به الرجوان : رجو البئر طرفاه ، كناية عمن يعرض للتهلكة ، وتنسب هذه الأبيات إلى عطارد بن قُران أيضاً .

20- المصدر نفسه : 568/2، العلج : الحراس .

21- المصدر نفسه : 36/1 .

22- المصدر نفسه :258/2 .

23- تجربة السجن في الشعر الأندلسي ، رشا عبد الله الخطيب ، منشورات المجمع الثقافي _ أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، ط1 ، 1999م : 82 .

24- المصدر نفسه : 107 .

25- أشعار اللصوص و أخبارهم : 462/2 .

26- الحرية الوجودية بين الفكر و الواقع ، دراسة في الأدب المقارن ، د . غسان السيد ، مطبعة زيد بن ثابت، (د.ت) :86 .

27- شعراء أمويون :141/1 .

28-المصدر نفسه: 257/1 .

29- المصدر نفسه: 39/1 ، لا تغامس : غامس : رمى نفسه وسط الحرب أو الخطب ، المعجم الوسيط: مادة / (غمس) : 662/2 ، مقصل : من السيوف : القاطع من الأسنة : الحديد الذرب، المصدر نفسه : مادة (قصل) : 740./2

30- موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، د. عبد المنعم الخفي، دار العودة - بيروت، ط1، 1978م ، 271./2

31- المصدر نفسه :303/1 .

32- ينظر: الثنائيات المتضادة في شعر الصعاليك و الفتّاك إلى نهاية العصر الأموي ، مي وليم عزيز، أطروحة دكتوراه ، كلية الآداب _ جامعة بغداد ، 2008م : 102 .

33- شعراء أمويون : 175./1

34- المصدر نفسه : 145./1

35- المصدر نفسه : 163/1 .

36- المصدر نفسه : 139./1

37- ينظر: الثنائيات المتضادة في شعر الصعاليك والفتّاك إلى نهاية العصر الأموي:114 .

38- تأملات وجودية، زكريا إبراهيم، منشورات دار الأدب_ بيروت، ط1، 1962م: 38 .

39- ينظر: شعراء أمويون : 160/1-161.

40- المصدر نفسه : 173./1

41- المصدر نفسه : 175/1 .

42- المصدر نفسه : 173/1 .